الجزء الاول الثمن ٣٠ مليما

الديوان

كتاب في النقد والادب

يتم في عشرة أجزاء

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد و ابرهيم عبد القادر المازني

محرر بجريدة الاهرام محرر بجريدة الاخبار

الطبعة الثانية

يطلب من مكتبة السعادة باول شارع درب الجماميز

من جهة باب الخلق بمصر

ابريل سنة ١٩٢١

فهرس

مقدمة

بسم الله نبتدئ (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض فى أحاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعى اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة في أصوله وفنونه ، أخصها الامل فى تقدمه ، لالتفات الاذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس ، لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلل الاقلام المغموزة والمآرب المتهمة الى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل ، وتوقى تلك العلل . وهو كتاب يتم فى عشرة أجزاء . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة . وقد سمع الناس كثيراً عن هذا المذهب فى بضع السنوات الاخيرة ورأوا بعض آثاره وتهيأت الاذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب فى أجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتم عملا مبدوءا ونرجو أن نكون فيه موفقين الى الافادة ، مسددين الى الغاية . وأوجز ما نصف به عملنا ــ ان أفلحنا فيه ــ انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، وأقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصرى غربي : انسانى لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصاً من تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه

من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لان دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لان لغته العربية ، فهو بهـذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت فى لغة العرب منـذ وجدت ، اذ لم يكن أدبنا الموروث فى أعم مظاهره الا عربياً بحتاً يدير بصره الى عصر الجاهلية

وقد مضى التاريخ بسرعـة لا تتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيـدة أصناما عبدت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحاً أوجب وأيسر من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه فى جميع حالاته ، فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للادب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لاقدارها. فان أصبنا الهدف والا فلا أسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بيانا ؟

شوقي في الميزان

توطئة

كنا نسمع الضجة التى يقيمها شوقي حول اسمه فى كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات فى البلد ، لااستضخاما لشهرته ولا لمنعة فى أدبه عن النقد ، فان أدب شوقي ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه فى اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففاً عن شهرة يزحف اليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طى الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئا لسبب يقنعهم لم يبالوا أن يطبق الملأ الاعلى والملأ الاسفل على تبجيله والتنويه به فلا يغنينا من شوقي وضجته أن يكون لهما فى كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغداً لولا أن الحرص المقيت أو الوجل علي شهرته المصطنعة تصرف به تصرفاً يستثير الحاسة الاخلاقية من كل انسان وذهب به مذهبا تعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب أن لافرق بين الاعلان عن سلعة فى السوق والارتقاء الى أعلا مقاوم السمعة الادبية والحياة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة أن يشترى ألسنة السفهاء ويكم أفواههم ، فاذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول والزمور فى مناسبة وغير مناسبة وبحق أو بغير حق فقد تبوأ مقعد المجد وتسنم عقوة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الافهام والضمائر ، وسحقا للمقدرة والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل والحياء ، فان المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن فى الخزانة ، وهل للناس عقول ؟ ؟

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقي ممن لايمدح الناس الامأجوراً . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق المنتنة نعنى بها بعض الصحف

الاسبوعية . وعرف من لم يعرف إنها ماخلقت الا لثلب الاعراض والتسول بالمدح والذم وأن ليس للحشرات الآدمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء وذوى المآرب والحزازات . خبزمسموم تستمرئه تلك الجيف التى تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الارض . فى بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جوعاً أو تواروا عن العيون . هذه الصحف الاسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق أصحابها تكيل المدح جزافا لشوقي فى كل عدد من أعدادها ، وهي لاتنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل الاسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة جديدة والا فالقصائد القديمة المنسية فى بطون الصحف ، وان لم يكن شعر حديث ولا قديم فالكرم والاريحية والفضل واللوذعية ، وان ضاقت أبواب الدعاء والاطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال عليه بالشتم ويعير بالتقصير عن قدرشوقي والتخلف عن شأوه . وهكذا حتى برح الخفاء وانهتكت الدسيسة . والعجب ان يتكرر هذا يوما بعد يوم ويبقى فى غمار الناس من يحتاج الى ان يفهم كيف يحتال شوقي وزمرته على شهرتهم ومن أى ريح نفخت هذه الطبول

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ، ويعلمون أنها آفة وأى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقيمها وتقعدهاالقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصري وصمة ، الا شوقى . فانه يعتدها آلةشرف وأحدوثةحسنة فهو يغمس نفسه فى تقريظها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى ان ينصب هجاجات من أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية فى مثل ثروته بصر به يمديده بالسلام الخفى لأولئك الاوباش فى خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزى لها ويود ان تكتم عليه . ونقول في مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية وشمم أفذاذ العبقرية . فأما ان تكرم البطالة كما تكرم جلائل الاعمال ، وان يدعي الناس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروءة وان يتنادي الي الاحتفاء بناهشي الاعراض كما

يحتفى بمهذبى الارواح وهداة العقول ، وان يؤيد تفاهة المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور ، فتلك الهاوية التى لايبدو قرارها . . . ووا خجلة مصر ! ! من الذي يصنع ذلك فيها ؟ ؟ شعراؤها ـ الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الاعلى وطلاب الكمال الأسمى ، لا يرضون بما دون غاية الغايات مطمحا لاعجابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعد رفق السجانين بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزءا . . . ألا انه والله للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقى بجمهوره واستخف واستخف حتى لامزيد . ما كفاه ان يسخر الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدي بيده أجرة سوقه واختلاسه . وأقسم لو فعلها رجل فى أوربا لما قدر ان يمكث بعدها أسبوعا واحدا فى بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مغبتها أدبا زاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شيء ولا يؤنف فيه من شيء ، ولا يصد المرء ان يخلع فيه عاريا الا اتقاء طوارىء الجو وعوارض الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة

ان امرءاً تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى مم يستنكف فى سبيل بغيته وأى باب لا يطرقه تقرباً الى طلبته . والحقيقة أن تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد به كل مورد وأذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحاً للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم . نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد فى مركز أمكنه من قضاء هذه اللبانة اذ كان أشبه بملحق أدبى فى بلاط أمير مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل عليه بالتقريظ والتهليل وتتحاشى أن توسع صفحاتها لنقده كما توسعها لنقد غيره . وأنت اذا قلبت الصحف القديمة رأيت

فيها مئات المقالات فى نقد الادباء المشهورين كتاباً كانوا أو شعراء ولا ترى اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها • واستثن مقالتين أو ثلاثا بدأ بها المويلحى نقده فى صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ، وهذا أدعى الى الريبة ، وكان فى أمانة شوقى وموظفين آخرين بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والادباء فكان شوقى يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالادب ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه فى الصحف ويلغطوا فى المجالس بتفضيله وتقديمه • ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحداً واحداً وأكثرهم أحياء يرزقون • أضف الى هؤلاء من يمدحونه لمشاركتهم اياه فى العادات الخصوصية والمنادمات الليلية ، وهم غير قليل ، ومن اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والالقاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك : أولهم محمود سامى باشا البارودي (لأنه باشا عتيق) وثانيهم اسماعيل صبري باشا (لانه أحدث عهداً بالباشوية والوزارة) وثالثهم أحمد شوقى بك (لانه بك متمايز) ورابعهم حافظ بك ابراهيم (لانه أحرز الرتبة أخيرا) ويلى ذلك خليل افندى مطران (لانه حامل نيشان) فطائفة الافندية والمشائخ وهلم جرا كانما يرتبونهم فى ديوان التشريفات لافى ديوان الآداب ! ! فبذلك وما شاكله اعتاد الناس ان يسمعوا أسم شوقى مشفوعا بافخم الالقاب غارقا فى صيغ الاطناب والاعجاب. وكأنه يخشى ان ينسى الجمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه الا ان تكرر تلك الصيغ فى كل مرة يذكر فيها اسمه . ففى كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء وسيد الادباء ، وليت شعرى ما ضرورة هذا التكرار كله ان كان مفهوما بذاته ؟ ؟ ولما رسخت هذه الالقاب المأجورة صدقها العامة وأشباه العامة ومن يجاملون السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها ـ ولم لا يصدقونها ويرددونها وأكثرهم لا يعنى من الادب بكثير ولا قليل ، وجلهم انما يعرفه بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟؟ فان كان فى الامر موضع للعجب فهو أن تسمع ثناء متكررا ولا تسمع نقدا — مع ان الاغراق فى الثناء

احجى ان يغوى بالمنافسة ويكثر من النقاد • ومتى علمت علة السكوت فقد زال موضع العجب

وأظن السن قد فعلت فعلها فى نفس هذا المعذب بمرض الصيت فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فأصبح لايقنعه ان يعلل بالدهان ، ويؤكد له التفرد والرجحان، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ، فلا يروى لاحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن الى شهرته شهرة • والا فعقوبة من يرتكب جريمة الاجادة معروفة !! وما أطول عذابه ان لج به هذا الوسواس!! وان المحنة لتستدر الرحمة ولكن ارحم الناس خليق ان يضحك ممن يخال انه يعقم بطن الطبيعة ويسد الآذان ويضيق رحب الفضاء بالاجرة

ولو شئنا لاتخذنا من كلف شوقى بتواتر المدح دليلا على جهله باطوار النفوس فان الاذان أشد ما تكون استعدادا لقبول الذم اذا شبعت من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النغمة • واذا تعود الناس ان يسمعوا ضربا واحدا من الكلام عن انسان تاقوا الى سماع كلام عنه من ضرب آخر • ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة وأكبر ذنبه عندها انها أفرطت فى محاباته ، فهل يدرى شوقى أنه يؤجر أذنابه على النيل منه حين يبذل الاجر على المبالغة فى مدحه ؟؟ انه لا يدرى ولا يبرئ المريض أن يدرى بدائه

وعلى نفسها جنت براقش . فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حيلتهم ووهن أسلحتهم ونضطرهم الى العدول عن أساليبهم المستهجنة يأساً من صلاحها فى هذه الايام • اذ يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس اقدارهم الا ريثما تنكشف أسرارهم • ونقول لشوقى أن سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكربه أن يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا أبرد عليها وغرة قيظها • وانه ليلذ لنا أن نكون نحن

حربه وبلاءه وأن نستطيع الا دالة للحق من الباطل فى غرض من الاغراض فانها لذة نادرة فى هذا العالم

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان أبلغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا، وأضر مايكون اذا كان متخذاً نموذجاً للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الامر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن انها قصيدة رديئة فان الذوق والتمييز اذا اختلا لم يكن اختلالهما فى الادب وحده . وأنت اذا استطعت ان تهدى الطبقة المتأدبة من أمة الى القياس الصحيح فى تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح فى كل شئ ومنحتهم ما لا مزيد لمانح عليه . وان الامم تختلف ما تختلف فى الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها أجمعه الى فرق واحد : هو الفرق فى الحالة النفسية أو بالحرى الفرق فى الشعور وفى صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها فكرا وقولا أو صناعة وعملا . فليس اصلاح نماذج الآداب بالامر المحدود أو القاصر على القشور ولكنه من أعم أنواع الاصلاح وأعمقها . وسنتناول شعر شوقى قصيدة قصيدة أو معني معنى حتى نتبين الأثر جليا فى تحول الآراء وسلامة القياس . وسيرى القراء انا نغلظ له البلاغ ونصخه صخاشديدا ، وكذلك ينبغى أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالعقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الافواه وتسخير المأجورين ، على اننا لا نحتاج ان نقول ان ذلك ليس بما نعنا احترام الحق والتزام الصواب ، وفى غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارئ ليقتنع بما نقول فاننا لا نسأل أحدا اقتناعه ، ومن كان يحتكم برأيه الى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا ان نوجه لمثله كلاما، وانا لبادئون :—

رثاء فريد

أصاب شوقي حين قال ان قصيدته في رثاء فريد من خيرة قصائده . فانها في مستوى أحسن شعره الاول والاخير ، وهي صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهتف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجراً في بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذى كان يشتهر به الشاعر فى تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضى عهد ركاكة فى الاسلوب وتعثر فى الصياغة تنبو به الاذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق الى جملة مستوية النسق أو بيت سائغ الجرس فيسير مسير الامثال وتستعذبه الافواه لسهولة مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف وتراصف الكلمات ومرونة اللفظ أصعب مايعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الاساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة — فاذا قيل ان هذه القصيدة يتلوها القارئ « كالماء الجارى » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . واذا اشتهر شاعر بالاجادة فليس للاجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوى الحلو » وهذه هى قدرة شوقي التى مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هى مزية قصيدته فى رثاء فريد وفى أحسن قصائده

مضي الجيل الفائت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة وأخرجت المطابع مئات الكتب التى صاغها أقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الاسفار الافرنجية أو اطلع عليها الناشئة في لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفني أو الادبي . وسهلت الاساليب لكثرة ماوردت على الاسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارئ أن يبحث عن المعنى

بل لا يكفى القارئ المطلع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله . فمزية شوقي عند هذا الجيل الناشئ من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لتبحث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقى اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لهارنة ذلك الصدى، وطفق أذكياء القراء يمرون بشعره الاخير قصيدة في ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره، اغتراراً بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : «ماذا أصاب شوقى » ؟ ؟ ويغالط قراؤه الاقدمون أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيراً من هذا الشعر ، وقد يعزون الاختلاف الى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون به على الذكرى وحديثه الذى يغصبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون — لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقى الأمس هو شوقى اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب في ذلك ولا في بقائهم على احلال شوقى محله الاول مع انحدار شعره في نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعادة التى لم تتغير منذ قدروه للمرة الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمد شوقى في مكانه لانه جعل اطراء الناس غايته فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطاً للنمو . ثم لا تنس ان القارئ يرتقى في الاختيار أضعاف ما يرتقى الشاعر في الاداء والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الاربعين فان أخصب أيام الشعر أيام الشباب . واذا ارتقى فانما يكون ذلك باحتثاث الطبع وادمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من الناس داعياً الى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة لا يتعدى كتب القصص والنوادر

وقد أحس شوقى بالتغير من حوله فآده أن يستدركه وأعيته الزيادة في سن التقهقر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزاد ترويج السلعة كلما خيف عليها الكساد

ولما سئل عن غرضه من قصيدته في فريد وقرئ له في نقدها مالا يحب بهت على ماسمعت وقال : تلك قصيدة أردت بها الكلام في فلسفة الموت . . .

فلننظر اذن فلسفة الموت التى استنبطتها حكمة شوقى :

***

تعود أيها القارئ الى هـذه القصـيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين الا كل ماهو أخس من بضاعتهم وأنجس من فلسـفتهم — كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز اذ ينادون فى الازقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ، الذى عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئاً التقاه » الخ الخ

تلك أقوال الشحاذين وهذه أقوال (أمير) الشعراء

كل حي على المنية غاد   تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الاولون قرناً فقرناً   لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم   غـير باقى مآثر وأيادى

الخ الخ

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار ونزع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه أحط من ذلك معدناً وأقل طائلا وأفشل مضموناً . والجيد منه لايعدو أن يكون من حقائق التمرينات الابتدائية « كالزبيب من العنب و ٢ + ٢ = ٤ » وهلم جرا . وأكثره أتفه من هذه الطبقة فالقصيدة اما بيت حذفه واثباته سواء أو بيت حذفه أفضل ، مثل أخباره بأن جر النعش في مركبة أو حمله على الرقاب سواء

لا وراء الجياد زيدت جلالا   منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذي ما أحسب أحداً يمر بقبر فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيبة في نفسه هزؤا وعبثا . وذاك حيث يقول

كل قبر من جانب القفر يبدو   علم الحق أو منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقي الاخروية : « انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى الى طريق الآخرة لئلا يضل أحدهم النهج أو يصطدم بصخرة في دروب الموت !! » ومثل تحذيره الناس من تربص الاجل بهم ايقاظاً ونياماً كأنما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهوة

وعلى نائم وسهران فيها أجل لاينام بالمرصاد

ومثل تيئيسه من رجعة الميت الى أهله وتخطئته الذين يزعمون غير هذا الزعم يقول ذلك ببهجة العارف لما يجهله غيره كأنها مسألة خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها أحزاب الفلسفة ولم يفرغ الناس يوما من بحثها وتقليب وجوهها والتنقيب عن أسانيدها وشواهدها حتى جاء شوقي ففض الخلاف ببيتيه هذين

سر مع العمر حيث شئت تؤبن وأفقد العمر لاتؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذي زعموه في قديم من الحديث معاد

ولاغرو فقد كان أهل الميت اذا مات في برلين أو لندن أو الهند لايزالون يترجون يوم أوبته ويعدون أيام غربته ، وكان العلماء في كل قطر وبلد يتساءلون أفمن مات غريباً عن دياره أيؤب الى أهله يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتعا بالعافية أو لايؤب ؟ ؟ فكان فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » الى ان جاء شوقي فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا يؤب » فانحسم الاشكال وقطعت جهيزة كل خطيب :

قال ناقد أديب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه قائل المثل العامي « اعطني عمرا وارمني في البحر » وانه كان أسوأ منه تعبيراً وأقل ظرفاً اذ يخاطب القارىء بقوله « أفقد العمر » وذلك العامي يتلطف ان يجبه الناس بهذا الخطاب ونقول : ان توارد الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فان من يتجشم لاجل الانسانية أن يغوص على هذه المسائل العويصة ويسهر الليالي في فض مغلقاتها وحل مشكلاتها لحقيق بأن يتجاوز له الناس عن حسن المخاطبة ولا يكافئوه ان يؤبه لمثل هذه الهنات ! !

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل أبيات شوقى التى لم يرد فى فلسفة الشحاذين مثلها — فمن هـذه الابيات نبأ عجيب فحواه ان فى العالمين نعشا واحـدا تنقلهم أعواده من عهد عاد

تستريح المطى يوما وهذى تنقل العالمين من عهد عاد

فان لم يكن يعني هذا ويزعم ان الامم لا تملك منذ وجدت غير نعش واحد تنقل عليـه موتاها فسبحان من يعلم مراده. والا فان كان يعني ان هذه الخشبة التى ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى وتجدد فأى شيء لا يمكن ان يقال فيه ذلك ؟؟ أية مطيـة لا تنقل العالمين من عهد عاد كما ينقلهـم النعش ، وما بال أى انسان لا يقول اليوم أو بعـد مائة جيـل انه ركب مركبة فرعون ونام على سرير قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الارض كم رمت صولجانا وطوت من مـلاعب وجياد

شاعر عصرى ولا شك !! ألا تراه يدين بكروية الارض ؟؟ ولـكننا نخشى أن لا يكون شوقى قـد ذكر الـكرة الا ليذكر بعـدها الصولجان والملاعب والجيـاد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منـه ، فهل كـذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟؟ ان الحقائق الخـالدة لا تتعلق بلفظ أو لغـة لانها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها . وأنت اذا نقلت هذا البيت الى أية لغـة لم يكن معناه الا هكذا : « هذه الغـبراء أسقطت من أيدى الملوك قضبـا كثيرة ودثرت ميادين لاعداد لهـا من ميادين السباق وأبادت خيـلا لاتحصى » ـ فما أشبه الحكماء بالممرورين ان كانت ثرثرة كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة

ويقول

تطلع الشمس حيث تطلع نضجا وتنحى لمنجـل حصـاد

تلك حمـراء فى السماء وهـذا أعوج النصل من مراس الجلاد

اليوم لا تخشى بغتة الاجل فى كل حين !! فالشمس لا تضرج بدم قتلاها

الا حيث تطلع صبحا (أى حين تطلع حمراء وفى السماء. أما أن طلعت فى الارض فهذا شىء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا الا فى أيام الهلة أو المحاق وفيما عدا هذه الاويقات لا قتل ولا حصاد، فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا تصدقوه فان موته باطل . . .

ألا أن شعرا يسف الى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب الا زغل الصناعة لاجزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كأن الاشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكأن الناس فقدوا قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو أعوج معقوف فطلبوا له شبها، وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسي، لانه لن يهرب يوما فنقتفى أثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه، وان كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يبثه فى نفوسنا من حنين أو وحشة أو سكون أو ذكرى، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم هو كالخلخال ثم رأوا أن لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق زنجية الظلام، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشببوا بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الاوهام . وأفتن قوم فقالوا هو كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز

أنظر الى حسن هلال بدا   يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة   يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم نرجس، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله؟؟ هذر فى هذر . وجاء شوقى فقال انه منجل يحصد الاعمار فاخطأ حتى التشبيه الحسي لان الاعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب، وأما فى سائر الايام فلا يكون القمر

منجلا في شكل ولا فى حقيقة . فما المراد بكلامه ؟ ؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الارض :

والغبار الذى على صفحتيها دوران الرحى على الاجساد

وذلك من قول أبي العتاهية :

النـاس فى غفلاتهـم ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الاعمار بالطحن ولا بأس بهذا التمثيل ، واقترض للطحن رحى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده الاستطراد ، فعز على شوقى الا أن يكون لهذا الطحين غبار وأن يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحى . عند هذا يركد العقل ويجم الكلام

ولم أفهم البيتين الآتيين بعد قوله « تلك حمراء فى السماء الخ »

ليت شعرى تعمدا وأصرا أم أعانا جناية الميلاد

كذب الازهران ما الامر الا قدر رائح بما شاء غاد

يعنى الشمس والقمر . فما التعمد والاصرار وما اعانة جناية الميلاد وما الفرق بينهما ؟ ؟ أيريد ان يطبق على الازهرين المادة القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق اصرار ؟ ؟ وفيم كذبا وكيف يكون جريان الشمس والقمر فى حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما نفيا للقدر الرائح الغادى ؟ ؟ وهل التعمد والاصرار واعانة الميلاد الارواح القدر وغدوه بما يشاء ؟ ؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم فى ذلك على شاعر الانس والجن فلعل هذه من أبياته التى صنعها لاخواننا الجن واختصهم بها دوننا

ويقول فى نعش فريد أو حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لهـا الزمام لجاءت وحدها بالشهيد دار الرشاد

أما دار الرشاد فهى مصر كما أرادت القافيـة لا كما أراد شوقى ولا كما أراد التاريخ والاثر . وأما معنى البيت فيقول شوقى ان نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسعى وحده الى مصر ! ! فلله ما أقدر رائى الشموس على احالة الجليل

مضحكا والتقديس زراية : نعش يسعى وحده فى البرور والبحار ويجوس خلال المدائن والديار ، يعتدل وينعطف ، ويمضى ويقف ، حتى يستقر ملهما عند قبره ، جاداً لا يلوى على شىء قبل بلوغه ، والناس متنحون عن طريقه ، تاركيه يتهدى لطيته .. أفمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والاجلال ؟؟ الاساء ما أصاب ذكرى الرجل من اجلال شوقى . أراد أن يقول كما قال البحترى :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما   فى وسعه لسعى اليك المنبر

فكبا كبوة حاطمة

ولقد طمح شوقى الى معارضة المعرى فى قصيدة من غرر شعره لم ينظم مثلها فى لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا فى شعر العرب على خير منها فى موضوعها . والمعرى رجل تيمم هذه الحياة محراباً واجتواها غابا وصدف عنها سراباً — لابس منها خفايا أسرارها ، واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غوابر آثارها ، وحواضر أطوارها . فاذا هو نظم فى فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله وتلك سبيله . وأين شوقى من هذا المقام ؟؟ انه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره وأعمق ما هبط الى نفسه من آلامها اعراضة أمير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر فى فلسفة الموت والحياة

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا نكبر قصيدة المعرى تعصبا للقديم وايثاراً للعرب على العجم نلقى اليه ها هنا درسا فى الشعر قد ينفعه

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر الاشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها . وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه وانما مزيته ان يقول ماهو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من القصيد ان يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع وانما همهم ان يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم فى نفس اخوانه زبدة ماراه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . واذا كان كدك من التشبيه ان تذكر شيئا أحمر ثم تذكر

شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما زدت على ان ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه ان تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الاشكال والالوان فان الناس جميعاً يرون الاشكال والالوان محسوسة بذاتها كما تراها وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الاشكال والالوان من نفس الى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لالغيره كان كلامه مطربا مؤثرا وكانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه لانه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر مايضيء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على الوجدان مايصفه فيزيد الموصوف وجودا ان صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان احساسا بوجوده وصفوة القول ان المحك الذي لايخطىء فى نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره : فان كان لايرجع الى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وان كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود اليه المحسوسات كما تعود الاغذية الى الدم ونفحات الزهر الى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهناك ماهو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما أخال غيره كلاماً أشرف منه بكم الحيوان الأعجم

فان تبين لك ماتقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى التى اجترأت على معارضتها

نظر المعرى الى سر الموت فلم يره فى مظهره الضيق القريب ، حادثاً متكرراً تختم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة العميمة . رآه كما بدا منذ القدم لبدائه الحكماء وأصحاب الاديان ، وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس ومانى : حرباً سرمدية قائمة بين قوتين خفيفتين ميدانهما كل نفس حية وكل ذرة فى طباق الارضين وأجواز السماوات — هاتان القوتان هما الخير والشر أوهما النور والظلام

أوهما الحق والباطل أوهما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لاتغفل ، وأعوان لاتني تقبل وتدبر ولا تمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها الى ختام الزمان ان كان للزمان ختام

نظر المعرى الى العالم الارضى فلم يكن سرير محتضر مارأى ، ولانحبا مقضيا ماأحس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائماً فى كل كيان قائم ، متقادما فى كل ركن متقادم :

كل بيت للهدم ماتبتنى الور قاء والسيد الرفيع العماد

وعلم ان القوتين اللتين هذا أثر نضالهما فى الارض فاعلتان هذا الفعل لامحالة فى أشرف كواكب السماء وأسماها ، وأضوأ عوالم النور وأذكاها .

زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حدثان الد هر مطف وان علت فى اتقاد
والثريا رهينة بافتراق الشـ ـمل حتى تعد فى الافراد

لابل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين متلاحقين فى كل حال

واللبيب اللبيب من ليس يغتـ ـر بكون مصيره للفساد

وكانت العبرة التى استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمد ، فوق أفراح الانسان وأحزانه. ولو نطق الابد لماتكلم بغير قوله :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى اذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد

واذا ذكر متاعب الحياة فكأنما يذكرها ليصرفها عنه بنظرة القانط المستخف فيقول :

تعب كلها الحياة فما أعجـ ـب الا من راغب فى ازدياد

---

(١) الكون هنا وفى البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم

أن حزنا فى ساعة الموت اضعا ف سرور في ساعة الميلاد
أسف غير نافع واجتهاد لايؤدى الى غناء اجتهاد

كذلك كان احساس المعرى بسر الموت ، وهو أوسع احساس قدر لبشرى أن يحسه من ذلك السر الرهيب

أما أنت فقد نظرت فماذا رأيت ؟ ؟ لعلك أدرى بما تنظر وترى ولكنا نقول لك مالست تدريه . انك لم تر شيئاً يحتاج الناظر فى رؤيته الى غير الحواس – انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد » حيث يسوى المعرى بين وكر الورقاء ومعاقل العظماء وبين منازل الارض ودارات السماء . أردت أن تعمم كما عمم ففاتك مغزى تعميمه وجئت بكلام لالباب له ولا ترضى قشوره . اذ ما علمنا بين الحضر والبدو من فرق فى التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما فى حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادي لان أحدهما قد يسمع ماليس يسمعه الآخر لتباعد الدار أو انقطاع الاخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادى لمثل هذا السبب . وأما قولك يموت من فى الحاضرة والبادية فكمدك الناس اسما اسما وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى أنه لو صح أن يقال هذا فأى فضل فيه لغير الحواس وأي دليل فيه على اللب الحكيم والطبع القويم ؟ ؟ وتقول فى القبر أنه منار المعاد

وزمام الركاب من كل فج ومحط الرحال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق فى هذا الحكم ؟ ؟ وتقول

وعلى نائم وسهران منها قدر لاينام بالمرصاد

وهذا كذاك بل أضعف أما قولك .

لبد ساقه الردى وأظن النـ ـسر من سهمه على ميعاد

فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة

واذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمدنا الى مقارنة الابيات المتشابهة فى القصيدتين ألفيناك تخطئ فى كل بيت تسرقه من المعرى ، أو تأتى بالبهرج من حيث أتي هو بالذهب

المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الاضداد
ودفين على بقايا دفين فى طويل الازمان والآباد

وليس أجل ولا أصدق من هذا الشعر . وأن تعبيره عن تعاقب الدفين بعد الدفين فى الموضع الواحد بتزاحم الاضداد وقوله ان اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ماينطق به اللسان فى وصف تهكم الموت بالاحياء وعبث التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحاكى هذه المعجزة البيانية بقولك

هل ترى كالتراب أحسن عدلا وقياما على حقوق العباد
نزل الاقوياء فيه على الضعـ ـفى وحل الملوك بالزهاد
صفحات نقية كقلوب الرسـ ـل مغسولة من الاحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم أحسن صيانة لانه يبيدهم جميعاً !! فبحقك ياهذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟ ؟ وما الذى لقيه أضعف العباد من أقواهم وأظلمهم أشد من هذا الانصاف والصيانة ؟ ؟ ويخيل اليك أنك أبدعت حين قلت أن الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى أن الزهاد لايستضيفون الملوك فيه على السواء ؟ ؟ فان كنت لاتعنى ذلك فقد قلت ماتعلم انه خطأ وقلته لغير غرض — أما المعرى فقد أحاط بهذا المعنى فلم يخسر شيأ من الصدق أو بلاغة الاسلوب حين قال

وعزيز على خلط الليالى رم أقدامكم برم الهوادى

وهذه هى البلاغة الجادة التى لالعب فيها

وعندك ان طهارة القلب هى موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيا مغسولا كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب أن لاتزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟ ؟

يقول المعرى

خفف الوطء ماأظن أديم الأ   رض الا من هذه الاجساد

وأنت تقول

والغبار الذى على صفحتيها   دوران الرحى على الاجساد

المعرى يسأل

أبكت تلكم الحمامة أم غنت   على فرع غصنها المياد

وأنت تأبى أن لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكى فتقول

ضاق عن ثكلها البكى فتغنت   رب ثكل سمعته من شاد

ثم يروقك وأنت تبارى المعرى مباراة المضحكين ان تزعم لناجيتك ولنفسك انك نظمت فى فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة فى آية من آياته ! !

على انك قد تعذر بعض العذر فى قصورك من هذه الناحية لانك مجبر فيه لامخير . أما الامر الذى لا نعلم لك منه عذرا فأن ترثى رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الاعرضا ، وان لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس . ولو كان ذاك لضيق فى مضطرب القول أو لنقص فى بواعث الاسى على الرجل لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم ان مصر الحديثة لم تنجب من دعاتها رجلا لقى فى حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن ويطيل مدد الرثاء بعض مالقيه فريد . فتهاونك فى قضاء حقه وتوفية قدره لا يكون الا لعجز أو كنود. فان لم يكن هذا ولا ذاك فلأحنة لا تزال تغلى فى نفسك على الرجل بعد موته . وأنت بأسبابها أعلم

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقذع فى الهجاء ، أو ينوى الذم فيأتى بما ليس يفهم منه غير الثناء . وأشد من ذلك ايغالا فى سقم الذوق وتغلغلا فى رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو فى موقف التأبين والرثاء ، والعبرة بالفناء

ولست أدرى أى ماجن من نظامينا قال هذا البيت فى رثاء إحدى القيان :

رحمة العود والكمنجا عليها ... وصلاة الزمار والقانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهما سمج منه الهذر فى مثل هذا الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بفن الغناء واقدار ذويه — أسلم ذوقا فى بيته هذا من شوقى فى رثائه لعثمان غالب . لانه تعمد الهزل فقاله وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء .

ضجت لمصرع غالب ... فى الارض (مملكة النبات)
أمست (بتيجان) عليـ ... ـه من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لغيـ ... ـبته وأقعدت الجهات ! !!
فى مأتم تلقى الطبيـ ... ـعة فيه بين النائحات
وترى (نجوم الارض) من ... جزع موائد كاسفات
والزهر فى أكمامه ... يبكى بدمع الغاديات
حبست أقاحى الربى ... والعهد فيها مومضات ! !
وشقائق النعمان آ ... بت بالخدود مخمشات

بل مما لامراء فيه ان صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء وبر بوعده لنفسه واغتبط بما دب عليه من المعانى الدقيقة والنكات الانيقة . . . . . لانه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو فى غير موضعها ، ولعمرى كيف يكون

شاعرا من لا يذكر الزهر أو الثمر كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . يذكرهما في غضبه ورضاه ، وفي لهوه وبلواه ، وفي فرحه وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته وكراه — ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينة الآهلة ، وحين يروى عن النعمة السابغة أو يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مدلها بفتن الجمال من اذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقل انها صفراء كالاقحوانة ، أو المتميز من الحنق لم يحسب انه يتفلق كما تتفلق الرمانة ، أو المتدلى من المشنقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، أو قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !! وشوقى لم يوف هذا الفرض فحسب بل أرانا أن الازهار لاتجرى على سنن المجاملة في النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هى غرس يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلا بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة ان تذيل دمعة أسفا لفرقته وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والذوق المليح فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمود الهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمرار النحاس احتقانا ، ولين القصدير ذوبانا ، الى آخر ما هنا لك من الوان العذاب التى تلم بالمعادن الصلاب — ولو كانت النكبة فى عالم « جيولوجى » لما قال شيئا من ذلك بل كان يقول (مثلا) ان الطبقة الرملية فى ناحية كذا تحثو التراب على رأسها فزعا ورعبا ، وان الطبقة الجيرية فى موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وان هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الارض أو تزلزل بها الكمد وناهيك ما كان يقوله لو نفذ القضاء فى شاعر جليل فانه أبقاه الله لن يقنع بأقل من الحاق الزحاف والاقواء والخبن والسناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذى الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون ، وأي تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر الندابة فى صهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب ونقيق الضفادع لو كان العالم المفقود من

علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟ ؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه فاننا ان احتملنا حداد الالوان والاشكال فلن نطيق الصبر على حداد الاصوات والاقوال

ولكن وا أسفاه ! ! لابد من التضحية ، لابد من الفقدان والخسارة فى هذه الدنيا الفانية ! ! وليس من السهل ان يقول الانسان ان الاشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التى ما برحت قاعدة فى مكانها منذ الازل ، ولا من الهين ان يحشر الطبيعة « لا اكثر » في مأتم تكون فيه احدى النائحات « فقط » ولا من اللعب ان يصل في كل ساعة الى ابكاء الرياحين والازهار والمعادن والاحجار — ولا سيما النفيسة منها — كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل ، ولكي يقول الرجل الفاني منا هذا القول ويهبط الى قرار هذه المعانى العميقة ، لاغنى له عن التضحية بالذوق السليم والوصف الصادق والتخيل الصحيح والشعر الجدى والشعور القوى ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولا مبالاة . . . تقول ولكنه مع ذلك كان سخيفا غثا ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . . ونقول هذا صحيح ولكنه قال ما أراد أن يقول وتفنن وروى . أجل ! ! انه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذى يرثيه أولئك السذج البلهاء ، الذين يحسبون ان الاخصائيين اذا ماتوا لم يفجعوا أحدا غير المواد التى تفرغوا لدرسها وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا أودى احد أولئك الاخصائيين أسفوا ووصفوا أسفهم هم عليه (مباشرة) ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب السحاب تارة أخرى ، أو يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها وأمواتها وأحيائها ويجعلوا النفس الانسانية أو نفس المصاب بالبلية ، آخر من يحس فى هذا الكون بفقد عزيز ! !

ولقد كنا نود أن نقف عند هذا الحد فى الابانة عن براعة شوقى وافتنانه ،

والاشادة بجلالته وبيانه . لولا اننا آثرنا ان لا يفوتنا سؤاله عن أنواع من النبات لم يسمها فى تلك المناحة التى أقامها — ماذا كان من شأن القطن بأصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والقثاء فى ذلك المأتم العميم الذى كانت الطبيعة فيه احدى النائحات « فقط » ؟ ؟ انه سكت عن هذه الانواع وغيرها فهل ذلك لانها لم تكن من اتباع النباتى الكبير أم لان من خواص تلك الانواع التى يعملها الشعراء ويجهلها النباتيون أنها مضيعة للعهد ناكرة للجميل ؟ ؟ أم لعلها لا تنتمى الى عالم النبات وان ردها الناس اليه ، كالمرجان يحسبه قوم نباتا ويحسبه آخرون جمادا وهو من عالم الحيوان ؟ ؟ أم هو الصدق فى الخبر والامانة فى التبليغ أوحيا اليه ما قال فذكر فريقا وسكت عن فريق : رأى الرجل الاقاحى باهتة ذابلة على غير عهدها وأبصر شقائق النعمان تخمش خدودها فابرأ ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواها يصنع شيئا فربأ بشعره عن شهادة الزور والتخرص وسجل عليها ما سجل من جمود الطبائع وقسوة القلوب ؟ ؟ تلك أسئلة ما كنا نسألها لولا أهميتها وخطورتها ولولا اننا تعلمنا مذ الآن ان نرقب أعين كل جامد ونابت وحى ، حاشا الانسان ، تعرفا لجلائل الانباء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار البرق ويطير بها النجابون ، ولولا اننا عرفنا ماذا ينبغى ان تحذر الامة من موت الاخصائيين من رجالاتها ، وأنها مسئولة ان تضن بارواحهم مخافة ان تتقع نرجسة أو تسود نخمة ....

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى الى رثاء العالم الطبيب فقال مفصلا مقسما:

أما مصاب الطب فيـ ... ـه فسل به ملأ الأساة
أودى الحمام بشيخهم ... وما بهم فى المعضلات
ملقى الدروس المسفرا ... ت عن الغروس المثمرات

والقارىء يرى انه لم ينح نحوه الاول . وما كان ذلك بلا ريب استهجانا له

أو توبة عنه وانما خانته القريحة وخذ له الاختراع . والا فماذا كان يمنعه أن يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة — مثل هذه الابيات .

طـربت لمصرع غالب　　فى الارض رسل الحميات
قد مات (غالب) جندها　　فتمردت بعد (الممات)
أمست جراثيم الملا　　ريا من سرور (ظاهرات)
وتفـرق التيفوس وال　　تيفود فى كل الجهـات
وتألب المكروب وال　　بكتيريا بعـد الشـتات
وبكت قوارير الصيا　　دل بالدمـوع السائلات

فهذه أبيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليـدنا فليقل لنا فيم أخطأنا المحاكاة وخالفنا الاحتـذاء ونددنا عن القياس ولـكأننا بصاحب « الامتياز » الاصلي يعض بنانه ندما على فوات هذه التتمة الصالحة فأنه ليس أغص للنفس من فرصـة يلوح لها تأتيها بعـد معالجتها واليأس منها ....

كذلك يؤبنون يامن خلقتهم فـكيف تراهم يتهكون ؟؟ وأما والله لو توخى هـذا الذى شمر لتأبين غثرن غالب أن يمازح الرجل بكلام يعرض له فيـه بعمله وصناعته مسترسلا في الدعابة مستهترا بالمجون متبسطا فى الفـكاهة لما استطاع أن يضرب على أوقع من هـذه النغمه ، فليت شعرى بأى ذوق مزج بين هـذين الشعورين المتباعدين تباعد القطبين ؟؟ أبذوق الشاعر المفطور الذى يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر ، والذى لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليـه أخفى ألوانها ؟؟ يقولون أن اذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر ينبغى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمير شعراء لا يميز بين احساسـين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان — أحدهما لا تحسه النفس الا في أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط والانشراح ،

والثانى انمـا يخامرها فى أقـدس مواقف الموت وأجلها : موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته .. !! ألا هكذا فليمت الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن فى دار الخلود

مه ! مه ! أن من السخف لمـا تعافه الجبلة وتتقزز منـه النفس تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذى تمنونا بلادة الاغبياء بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع وأقذره لانه كالورم الذى يخيل الى الغر من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن وورونق الصبا فيهوى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززاً أن يرى الدمامل مقبلة مرموقة

ومن نظر الى عشرة ممسوخين في بقعة واحـدة فاشمأزت نفسـه من رؤية عاهاتهم ومقاذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره بل هو لا يروقهم الا لما فيه من غثاثة وعوار — خلائق كل مانستطيع أن نعلل به هـذا الاعوجاج فى طبائعها وأذواقها أنها تلفت لفرط ما أخلدت الى الكسل والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التى بقى لها أن تعني بها وتكترث لها ونغلت لشـدة ما توالى عليها من عنت الدهر وذل الحوادث والحاح الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء للازب شر ما تمنى به نفس بشرية: أعقبها العجز عن احتمال الجد والتمـادى فى الهزل واللجاج فى السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدناً لها بل كادت تكون خلقاً ثابتاً فيها . وساء فهمهم للذوق السليم فأصبح جهد الذوق في زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنث الترف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الذوق الانساني وحسن استعداده وانما هما نقيض هذا الذوق وأقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية — ألا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين: يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش أحشاءهم وتقضم عظامهم وتلغ فى دمائهم وهم يسمعون أنينهم ويتلذذون بأوجاعهم كانهم تلك السباع الضارية تتلذذ

بما تأكل وما تشرب ! ! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد ! ! كانوا فى عهدهم الذى بلغوا فيه من الترف ونعومة الاخلاق مالم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولا بعدهم

***

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الذوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات . ألا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد أنه توفق هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية الله أحيا المومياء

يأمر الشاعر المرثى أن يقوم من الموت . ولماذا ؟ ليرى آية . . . فيحسب السامع أن الآية التى سيراها الدفين بعد بعثه أعجب وأخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لايتم البيت حتى يعلم أن الاعجوبة التى يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هى النظر الى ميت يبعث . . . فهل سمعتم في العى والاحالة ما هو أحمق من هذا اللفظ الفارغ الخاوى ؟؟ أليس هذا كايقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يعرض فى المسارح للمتعجبين ؟؟ وعلى أن بعث العلامة المدرج فى أكفانه أغرب وأشد استحالة من بعث المومياء التى يعنيها شوقى لان موت الامم مجازى لا تستغرب الرجعة منه وموت الافراد حقيقى لارجعة منه فى هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من بعث الاستاذ غالب أن يرى « المومياء » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه فى ضريحه ، لا لشىء الا أن يرى المعجزة التى قد رآها . . وبعد فليذكر شوقى أن الذين يدعوهم بالمومياء هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فأن كان هو شاعرا لاحد فهو شاعر المومياء ، وان كان لشهرته حد فهو اليوم الذى يقال فيه عن تلك المومياء

خرجت بنين من الثرى　　وتحركت منه بنات

ثم ماهذا الولع من شاعر « الموميات » باقامة الاموات ! ! فهو ينادى عثمان « قم تر آية » ويصيح بسليمان « قم بساط الريح قام » ويهتف بالاستاذ الامام شامتاً « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم ان اسطعت فى سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره . . أفلم يكفه قيام الاحياء حتى يقوم له كل من فى التراب ! ! !

ولم ينس شوقى براعة المقطع فختم القصيدة بأليق بيتين يتممان ما فيها من خطل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكر جاء رسوله　　فأتى بأحدى المعجزات

عيسى الشعور اذا مشى　　رد الشعوب الى الحياة

ففى كل مختصر من مجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ويكاد يضع كلامنهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول احياناً . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو مافى معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يفطن الى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئا واحداً ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم أن الحياة هى التى تنشىء الشعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهواً ولا يشعر الا لهواً ولا يمارس أسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفواً لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ماتوصف به انها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلداً للمقلدين فى استهلاله وغزله ومعانيه

مثل لنفسك أيها القارىء شاعراً من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعاً أول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكنافها ويتحرى عجائبها ويستكنه أخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفنونها ، الى ان سيق اليه صنيعة من صنائع شوقى فأسمعه أن هاهنا شاعراً يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لايذكر له من الالقاب الا لقباً مزدوجاً ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أوشاعر الأرض والسماء أوشاعر الانس والجن أو شاعر الاقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين — الى أشباه هذه الالقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحد كائناً من كان في العالمين. وقد تعلم أيها القارىء أن أذكياء الغربيين وخاصتهم لايأنفون الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم ، فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الاقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والارض والسماء ، وان كان لأحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى أو هوجو أوجيتى بشاعر أوربا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبعات كتبه — مسوغ لهذا اللقب . فلابد أن يلمح الشاعر الغربى فى تلك الصفات التى سمعها مغالاة وشططا . بيدأنه يحب أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وأن يعرف المعانى والمثل العليا والخيالات التى اذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الاوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ماتنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعى ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هى قصيدته فى استقبال أعضاء الوفد

يبـدأ صاحبنا معجباً فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الظباء السائرة فى الرمل ومن جماعة الظباء . . » وهو ترجمة قول شوقي :

اثن عنان القلب واسلم به   من ربرب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظاناً أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا انه يتوهم أن فصائل الظباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم فى هذا الجانب من الارض فيتقونها و يهربون منها لضراوتها وعرامها . ويود لو يرى هذه الاوابد الافريقية فما هو إلا أن يسأل صاحبه فى ذلك فاذا الجواب حاضر يلقى اليه بابتسامة الاستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس فى بلادنا ظباء مخيفة ولا أليفة — مالى هذا قصد شاعرنا ، وانما هو يعنى النساء »

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟ ؟ يسأل الرجل مستغرباً فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فاننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية »

نقول : ولا يبعد أن يرتضي الشاعر الغربي هذا التشبيه على أنه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لاأدرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلاء ، ولم تكون شوارع مصر تلولا ان كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟ ؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه . « اذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! »

وما أشد ماتكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لايرى داعيا لذلك الافتراض : « ولماذا ؟ ؟ ان الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الاقدمين »

فيفاجأ الرجل ويجد أنه قد أحال غير قليل على تباين الامزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضاً أن يحيل التقليد فى الغزل على اختلاف الخلقة

وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ماترجم له ولم يداخله شك فى نهضة الامة ليكون اذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز فى المعقول : فأما ان الشرقيين ركبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث اذا أحب السلف العربى أتى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون . . . وهو مستحيل . وأما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون فى ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما ويحيا ويموت الآخر حتى مايحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرىء من قلبين فى جوف واحد

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه أخذ يفهم بعض الفهم ويقول لمترجمه : « أخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسراً : « ان الغربيين كما يتسلون أحياناً بلبس ملابس الرومان واليونان الاقدمين أو يتزيون بزى الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا باحتذاء أسلوب الشعراء من الامم النازحة والاجيال الغابرة . رياضة وتفكها لاجداً والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لايعد من جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية مافيه انه رياضة مقبولة »

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات يحسبها احاجى والغازا . ويظن انه يذب عن شاعره المزدوج الالقاب حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا وانما نظمها فى مستقبل أمة ناهضة . . وتحية لزعمائها . .

الى هنا ينتهى العجب باليقين ـ فان كان الرجل قد ارتضى التقليد فى التشبيه والغزل واغتفر نقض المدينة العامرة يبابا وقلب الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام فى نهضات الامم بالغزل صادقا كان أو مستعارا ، وان يفهم الابتداء بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلاء ، تمهيداً للثناء على مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وان يئن ويتوجع ، فى حيث

يفخر ويترفع ، وان يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصح والاهابة ، فذلك مالا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وان أعوزته دلائل الحكم على منحى أفكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج أن يظلم أو يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معذورا

***

ونحن لم نمثل فى الحديث المتقدم بشاعر غربي لان فهم هذه البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم بساطتها ان يفهموا على أى وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح عليها . والا فأى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ربقة التقليد لا يشعر لاول وهلة بالخلط الشائن فى هذا الضرب من الشعر ؟ ؟ ما الشعر الا كلام فان كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته أنه أجمل وأبلغ وأحسن وضعاً للمعانى فى مناسباتها . فهل يتكلم الرجل فى السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل أن يخلط فى قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام فى نسق واحد ؟ ؟ فلو انه كان صادقا فى عشقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان ! !

***

لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نؤى تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكي هواه ، هجيراه كلما راح أو غدا حبيبة يحن الى لقائها أو صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر فى الاغراض التى من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة ثم تقدم بين يدى ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الامراء والاجواد في أقاصى بقاع الجزيرة

يحملون اليهم المدائح يبدأونها أحياناً بوصف ماتجشموه فى سبيل الممدوح من فراق الاحبة وألم الشوق وطول الشقة وأحياناً كانوا يصفون الناقة التى تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظمأ والطوى ومواصلتها الليل بالنهار سعياً الى الممدوح كناية عن الشوق الى لقائه ، وكان الغرض فى الحالتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الامل فى مثوبته ، فكان الابتداء بالغزل ووصف المطى فى قصائدنظمت فى المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة لايعد من باب اللغووالتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج الى النموذج والاستاذ فأقاموا المتقدمين أساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لايبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لايزالون يفدون على الامصار فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع فى هذا العهد ويتقاربان حتى لاينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدماً حسناً فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وأفرد كثيرا من الغزل فى قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك فى العظائم كما صنع أبو تمام فى بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفى رائيته التى أولها

الحق أبلج والسيوف عوار   فحذار من أسد العرين حذار

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتتحاً

ذى المعالى فليعلون من تعالى   هكذا هكذا والا فلا لا

حال أعدائنا عظيم وسيف الد   ولة ابن السيوف أعظم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحل الثاني

وكما صنع الشريف واضرابه فى كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم

ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الامير فى المدينة وانه لعلى خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التى اجتازها والمطايا التي أنضاها وحقوق الصبابة التى قضاها . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله فى مطلع كل قصيدة حتى فى الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لاحد من المتقدمين على بال .... يجيء شوقى فيتماجن ويتصابى فى مطلع قصيدة يتنظر بها مستقبل أمة ويقول فيها

قد صارت الحال الى جدها وانتبه الغافل من لعبه

ويجيء أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين انه مجدد وأنه عصرى بل أنه شاعر العصر

وهل تعلم ما الغزل الذى استحل لاجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعاً فيه أقل ابتداع وان حق عليه اللوم لوضعه فى غير موضعه — ولكنه هو الغزل الرث الذي ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فاى سوقة من صعاليك الوزانين لم يغسل رجليه فى وعاء هذه المعانى التى نضح بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعى العروض لم يقل فى وصفه : « قد يتثنى كالبانة » « أرداف مرتجه كالكثبان أى كأكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالاقمار أو كالنجوم » . « مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » الى بقية تلك الكناسة الشعريه المنبوذة . وهذه هى روح العصر فيما يحدسون ! !

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته الى موضوعه . فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التى نشرتها الصحف يومئذ لولا أنها

متناقضة متدابرة وأنها خلو من الاسباب والحجج التى بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعرى فيه ففى بيت القصيد أو بيتيه وهما

قطارهم كالقطر هز الثرى — وزاده خصباً على خصبه

لولا استلام الخلق أرسانه — شب فنال الشمس من عجبه

وأنه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح . ولو كان للشاعر فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن (مكره أخوك لا بطل)

ولا أسهب فى التعليق على البيتين ولكنى أروى مشاهدة يتبين منها القارئ مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وأن فى الاطفال اللاعبين خيالا أفطن وتميزا أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة

بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الامريكية منها مناظر خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن أشدها غرابة المطاردات الجامحة التى تجري فيها خوارق العادات فتتحرك الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والاواني . وهى كثيرة لا أظن زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحداً منها — حضرت منظرا من هذه المناظر فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة الى ان وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكا . وما أخالهم الا كانوا مصدقين ما يرونه وانما ضحكوا لان المنظر مضحك على كل حال . . . فليت شاعرنا الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنه حضر يومئذ فسمع ضحك الاطفال من سيارة تطير فيعلم ان طيران القطار بقاطرته ومركباته فى الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل ان يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى القطار شابا فوق الرؤس فى طريقه الى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرسانه يمنعونه ويكبحونه — لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والامر بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة

السذج ولولا انهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعت بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية . « الحمد لله الذى لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ »

أما ان القطار كالمطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيه لا أصل له . ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأى قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة . على انه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس فى الحروف . وهكذا تتعلق اشعار المقلدين بالحروف والالفاظ لا بالحقائق والمعاني . وشوقى كما قلنا فى أول المقال مقلد المقلدين

النشيد

ربما كنا فى غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق أحدا يتقبله ويحله المنزلة التى أحلته فيها لجنة الاغانى والالحان . فان ألممنا به الماما فى طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهى توقيف بعض القراء على قيمة أحكام اللجان ، وانها فى أكثر الاحيان تبع متبع ، لايرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والادب فى مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما فى أوربا فربما بلغ من تهاون الادباء بشأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهور التى كتبها فى الاخلاق وقدمها الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطة الأبد

تصدت لجنة الاغانى للحكم فى أناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه الكفاءة — وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة باشياء جمة قل بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة فى واحد منها . فمن شروط الحكم فى الاناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الالحان على المعاني ، مطلعا على أناشيد الامم ، بصيرا باخلاق الجماعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأى والعدل والجهل باسماء من يحتكمون اليه . فهل بين أعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟؟ اننا نعرف من بين أعضائها اناسا نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم فى علومهم ونراهم أهلا للحكم فى أعضل المشكلات التي تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق فى شىء لايفيد التفوق فى كل شىء . واذا علمت أن الرجل من الاخصائيين يقضى العمر فى فنه باحثا منقبا ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطىء ويبرم اليوم ما نقض أمس ، فأحر بك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم يدع الحذق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها

فمن هـذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا فى الجلسة وقبلها نشيد شوقى المقدم اليهم غفلا من الامضاء ، ولا ندرى لم تكلفوا أغفال اسمه ورأوا ذلك شرطا ضروريا لنزاهة الحكم ثم سمحوا لاحدهم (الاستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر فى الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الاعضاء الى رفضه ؟؟ بل لاندري لما أرجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد وتمهلت حتى يتم شوقى نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا ؟ ؟ أمن العار على الامة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع أنشودة واحدة ؟ ؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين فى احدى الفرق يلحنونه ويروضون أنفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الاوراق وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر فى أناشيد مجهولة ، وأسرار مكتومة ؟ ؟ فهل سعى النشيد وحده الى دار التمثيل؟؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقى وحرصها على اختيار نشيده قبلته على مافيه من مآخذ وعيوب ، نبه اليها بعض الفضلاء ، وردته الى صاحبه ليجتهد فى اصلاحه قبل اذاعته من قبلها . وذلك ان عضوا عاب قوله

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا   فليس وراءها للعز ركن

أليس لكم بوادى النيل عدن؟؟   الـخ   الـخ   *

وقال ان البيت الثانى منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والنيل بالكوثر ؟ ؟ فوافقوه على انتقاده . وأنكر بعضهم تأليف البيتين الآتيين ومعناهما

جعلنا مصر ملة ذى الجلال   وألفنا الصليب على الهلال

واقبلنا كصف من عوال   يشد السمهرى السمهريا

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل الى ان أحدهم قال : اننا نجعل مصر وطنا يشترك فى حبه ابناؤها ، وأما ملة ذى الجلال فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذى الجلال » وهو انتقاد سديد فأننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟ ؟ انما يقال اتحدوا

فى الوطن واتركوا الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر ان عبارة « كصف من عوال » افرنجيـة التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا نحمل تبعتـه . ويظهر ان الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع المحافظة على المعنى فاصلح بيتاً واحدا وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت

نموت اليك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المفدى حيا

وكانوا قد أخذوا عليه قوله « نموت اليك » لانها لم تسمع فى كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت رضاك مصر الخ » — وقد نشر كذلك فى صحيفـة الاخبار — فلم يقتنعوا ، فجعلها أديب فى النسخ الاخيرة « نموت فداك » فاقتنعوا ! !

ونذكر أيضاً انه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين جىء بهم ليحكموا فى أى الاناشيد أصلح للفخر القومي وأشـد اغتلاجا فى النفس وابتعاثا للحمية ومطابقة لنفسية الامة ! ! وليديروه فى اللحن الذي يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العاثرة ويسمعه الوانى فتضـطرم نفسـه عزما ، واليائس فيهجم الى الامل قدما ، والعدو فيتضعضع قلبـه رعباً وغما . . وليكون اللحن صـوت الامة فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والازمات فانظر أين ذهبـوا بهؤلاء المظلومين هل تعـلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان النفس يائسـة وراجيـة ، وغاضبة وراضـية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة ؟ ؟ وهـل فيهم من يروى بانغامه عن جـلال الحياة وجمالهـا وعن عظمة الـكون وبهجته كما ينبغى ان تـكون الموسيقى ؟ ؟ لقد علم كل انسان أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى ولكنها أصوات الذل والضراعة وألحان ينشـدها النائم فـلا يستيقظ ويسمعها الصاحى فينام

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى . وكان هذا وعده المعروف ولو انه لم يعد لما دار بخلد أحدهم انه على غناه يطمع فى مائة جنيه يحتجنها لنفسه

فكان يهم الاعضاء ان يفوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادى الموسيقى ، والنادى بحاجة الى اعانة المتبرعين

ولاننس ان اللجنة حكمت المويلحى ، وهو رجل تصل اليه هدايا شوقي . على انه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال رأيه اضطراراً . وحكمت حافظا وقد عرف أصحابه انه يتقى ان يرمى بالحسد ان أومأ بالنقد الى قرينه . ومن غرائبه انه كان ينحى على النشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الاعضاء فلما أعلن الاستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت

وعلمنا غير ماتقدم أمورا لانحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد الى النشيد غير آبهين للحكم له أو عليه ، وليكن قياسنا اياه ان نلتمس فيه أبسط الخصال التى هى قوام كل نشيد ولا يجوز ان تخلو منها الاناشيد القومية

يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون وعظا بل حماسة ونخوة وان يكون موضوعا على لسان الشعب وموافقاً لكل زمان . وهذا أبسط مايطلب فى أناشيد الأمم . فهل نشيد شوقى على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟ ؟

فأما قوة العبارة فليس فى النشيد بيت يدب له الدم فى عروق منشده . وكل مفاخره أفرغت فى قالب هو أقرب الى الاخبار منه الى الحماسة . وأقواها قوله : —

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الامانا
ونحن بنو السنا العالى نماما أوائل علموا الامم الرقيا

وليس فى هذين البيتين من نشوة الفخر ماتهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لاتجدمثلها فى قول من يقول « كان لى بيت سعته كذا من الاذرع ، بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، الى آخر أوصاف المساحة .. » فأى

فأى فرق بين قص المعلومات والحماسة اذن ؟ ؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه نم عن أعنات المقيد المجهود نخففت فيه ثلاث همزات تخفيفاً معيباً واستعصي الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » « تهيا » و « شيئا » شيا: نعوذ بالله من الشي

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه:

بنى مصر مكانكم تهيا فهيا مهدوا للملك هيا

خذوا شمس النهار له حليا ألم تك تاج أولكم مليا

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

أليس لكم بوادى النيل عدن وكوثرها الذي يجرى شهيا

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟ ؟ أأجنبى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟ ؟

ولقد استوطأ شوقى مطية الفلسفة والمواعظ بعد ان ركب حمارها ببيت واحد سوقى المعنى وهو قوله :

وانما الأمم الاخلاق مابقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وايابا فى كل مكان ومقصد . حتى طلع لنا بأذنى حماره الفلسفى هذا فى موعظته « على الاخلاق خطوا الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك أو شمالك . . فكانما كان شوقى على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ماأمكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق لا لان نشيده كان كما وصفته اللجنة « أكفاها وأوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسق النشيد قومى مصرى » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للاناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار

وفى المقطوعة الاولى خطأ تاريخى ماأظرفه فى نشيد أمة تفتخر بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر مصر وانما كانت معبوداً

لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . وأما تاج الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الاولى فى المدارس الثانوية . ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور المعبودة أو التي يرمز بها الى العبادات ولم تكن الشمس قط حلية لهذه التيجان . . فياحبذا النشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعه عنوانا على جهلها بتاريخها

ولا يكلفنا القارىء ان نأخذ على شوقى مبالغته في قوله « خذوا شمس النهار له حلياً » فاننا لانحاسبه على كلمة له فيها وجه تأويل

وأما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا ، فنظم لنا نشيداً لانتخطى به فى جميع العصور ان يتهيأ مكاننا • وان لانبرح نشرع فى التمهيد ونأخذ فى الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الاركان • وما علمنا شاعراً قوميا يطلب اليه ان يكون فأل الامة وهاتف مستقبلها فينعب فيها نعيب النحس وينذرها جمودا لاتتزحزح منه أوتنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الآنفة ، وأجهل مايكون هو اذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعشا البصيرة ان يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومى ، أى دعاء لايعوقك دين من الاديان ان ترتله فى البيعة أوتشدو به فى الكنيسة أو تصلى به فى المسجد ، فيخيل اليه أنه اذاجمع فروق الاديان كلها فى جملة واحدة فقد أتيح له هذا الغرض • فيستشفع فى دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبي الحق » فيكون ماذا ؟ ؟

يكون ان الاسرائيلى يحرم هذه الصلاة فى بيعته لانه لايؤمن بعيسى ولا بمحمد — وان المسيحى لايدعوا الله به فى كنيسته لانه على احترامه دين مواطنه المسلم لايعتقد النبوة الاسلامية ، ولانه يدين بربوبية المسيح لا برسالته فحسب وان المسلم يصلى به وحده فكانه لم يشر فيه الى دين غيردينه ، وان الدعاء القومى

لايكون دعاء لاحد ممن يضمهم قوم مصر

ولو أن طاهياً صناعته تجهيز الموائد قيل له ان ثلاثة من المدعوين فى الدار ليس يشتهى أحدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج أطعمتهم كلها فى صحفة واحدة لطرد من فوره ، فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لايغفل الطهاة ويغرق فى غفلة الذهن حتي أحسبه أحيانا يتعمد الامعان فيها ويطرقها من الباب الذى يفضي به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولايتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد ان خطر له ان يجمع شفاعات الاديان أجمع كي تكون شفاعة لكل دين ، عمد الى لصق الانبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لايناسب هذا المقام ، والذى لو كان هو وصفه الفذ لاسواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدرى شاعر مصر من رق من هرب موسى ؟؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به ! ! وقد نجد فى خفراء الريف كياسة تمنعهم أن يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، أو يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء

ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية ، فلا هو فى الشعر ولا فى النثر شاعر قومى موفق العبارة : وقد قرأناهما نتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطأه فى النشيد أخف وأهون ، من حيث ان الاناشيد لايصلى بها فى المساجد والكنائس ، لامن حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد اننا لانرى معنى لزج الاديان فى الاناشيد الوطنية ، فقد كان يكون أدل على الوفاق ان لانجعل وفاق الاديان مباهاة ومأثرة ، لان المرء يباهى بالشىء النادر أوغير المنتظر وهذه الامم المتحضرة والمتبديه أليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟؟ أتراها لاتحب ان يكون الوفاق شعارا لها

ولقد قدمنا اننا لانقصد الى الافاضة فى نقد النشيد ، فكنا نقارنه بما نعلمه من الاناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما

وقد أخذنا من مساوئه ما أخذنا فليس يسعنا ان نهمل ما أخـذ ا سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهى هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا   فلمـا آل للتاريخ ذخرا
نشأنا نشأة فى المجد أخرى   الخ الخ

ويقولون ان التنوين لابد ان يسقط فى الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت فاذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « فخرا » ومدبها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشـيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقـد ولـكننا نعـذر المنشـد فى موقفه والملحن فى صنعته

تقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هـذه الامة شـعارا ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة — نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا الاعجب من تفضيله على النشيد الثانى ومن اجتراء اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رأيهم . ولا أخفى عن القارىء انى ما كنت أظن فى جمهور قراء الادب استقلالا يقاوم تآمر المحـكمين والصحافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة ونزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشدين المنشورين ، وفى هذا الاستقلال أمل نغتبط به ونحمد بشائره

عباس محمود العقاد

النشيد القومى

رأينا أن ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقى ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذى يخشاه شوقى من التفات الاذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر بعد شيئا من شعره للقراء وشوقى يملأ طباق الارض باسمه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى على أحد . وقد اتصل بنا انه كان ثالث الاناشيد التى اختارتها اللجنة فاذا حسبنا للمحاباة حسابها جاز أن نقول انها حكمت بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارئ التفاوت بين النشدين حتى فى الخصلة التى اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب هنا أشبه بمناجاة النفس وهى فى نشيد شوقى مخاطبة أجنبى معتزل للشعب الذى يناديه . وهذا هو النشيد :

يابنى النيل وأحفاد الألى ... أطلعوا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والعالم لا ... يبتنى الا خصاصا من هشيم

***

أذكروا أن ثرى هذا البلد ... من تجاليد الجدود العظماء
لا تطئها أرجل العادى الألد ... وبكم أبناءهم بعض الدماء
تربها التبر المصفى المنتقد ... لا الذى يقنى الشحاح الادنياء
فامنعوا كنزكم أن يبذلا ... أو تعيشوا عمركم عيش عديم
لن تروا فى الارض عنه بدلا ... مالكم كنز سوى هذا الاديم

***

أذكروا أن عليكم واجبا ... لبنينا فى بطون الاعصر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا ... فهو حق الوارث المنتظر
نتقاضى الارث عصرا ذاهبا ... فلنصنه للعصور الأخر
سنؤديه اليهم أكملا ... لم يغيره زمان أو خصيم
تحمى مصر تحاماه البلى ... وبنوها خير من يحمى الحريم

أذكروا حاضركم كيف يقام | ليس يغنينا تليد القدماء
ما التماثيل المهيبات الجسام | وأبو الهول رهين الصحراء !
ما المسلات على باب الرجام | والنواويس وفيها المومياء !
ما عظيم تالد من العلا | فى ثنايا حاضر غير عظيم !
فاجعلوا عهد العلا متصلا | كاتساق الدر فى العقد النظيم

***

أذكروا مهما بلغتم سؤددا | أنكم لم تبلغوا أوج الكمال
أبعدوا فوق المنال المقصدا | فبنو الشمس لهم أقصى المنال
كم عبدنا قرصها المتقدا | فاتقدنا فى حماس ونضال
نبتنى الهيكل يتلو الهيكلا | خالدا فى ساحة الرمل مقيم
وسيبقى موطن الشمس الى | يوم لا يبقى لها قرص ضريم

***

أذكروا أن التفانى والغلاب | فى سبيل المثل الاعلى البعيد
نفثا فيكم وأنتم من تراب | شعلة غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب | وتصفى النفس من رجس الوجود
فاضرموا فى النفس هذى الشعلا | أضرموها تكفلوا الفوز العميم
مثلما أضرمت النار على | مذبح الرب بمحراب كريم

***

أذكروا ذلك وامضوا قدما | لا تكن وجهتنا غير الامام
تزدجينا دقة القلب كما | يقرع الطبل لجرار لهام
فنسوغ الموت ذوداً للحمى | ونذيل العمر سعيا واعتزام
فبحق نحن أحفاد الألى | اطلعوا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والعالم لا | يبتنى الا خصاصا من هشيم

عبد الرحمن صدقى

صنم الالاعيب

شكرى صنم ولا كالاصنام . ألقت به يد القدر العابثة فى ركن خرب على ساحل اليم — صنم تتمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم « ارستفانيز السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم . و- لم - لا يخلق الله المضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها وأشعرها الحاجة اليها ؟؟ ولم يلتزم فى الانسان مالا يتوخى فى سواه من وزن واحد وقافية مطردة ؟؟

هنالك اذاً على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبحث على تدبر القدرتين : هنا ثبج مزيد وأبد لا يحد وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد وحياة متجددة وأواذى متوثبة متولدة — وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بها عذبات الاشجار ، ولا يملأ صدرها حسن الآصال وروعة الاسحار ، ولا يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تتفتح عن آنق الازهار ، أو الغمائم ترسم فى صفحة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة فى مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذيوعها وانتشارها بل « وثبها » من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر مدى البصر بحراً مائجاً من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر فى الصباح البليل وقد أثقلت أكمامه الانداء فتساندت رؤوسها كأن سرباً من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض

كلا ليس فى كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك هذا الصنم لان باطنه شاءت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس بنفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء الا أن تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجده نور الحياة وحرها ولا أغنيا عنه من جمود طبعه شيئا وان كان وهو ملقى بين انقاض حياته يتوهم

انه ملهب الموج بسياطه ومدير الافلاك بتدبيره وحكمته . يقول كلما أعجبه شكله أو حاله أو أثاره نبذه واهماله « انا اله الشعر » فتاطمه الرياح وتدحرج ثقله على افريز البحر وترميه الامواج برش من سخرها وتسك أنقابه برعد من ضحكها فما أجله من اله يتضاحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر اذا كانوا أسلم فطرة من أن يكترثوا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين واذا تركوه غارقا فى طوفان من الاوحال النفسية مدفونا فى قبر من بكمه العجيب . وأى بكم أعظم مما أصيب به هذا المنكود الذى لا يكفيه ان يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبيا فنيا ورسولا بدين هداية فى الادب ؟ ؟

وأنت أيها القارىء قد تعلم أن سر النجاح فى الادب هو علو اللسان وحسن البلاغ وقوة الاداء وان على من يريد أن يشرح ديناً جديداً « لأطفال » هذا العالم أو أن يحدثهم بما أحب أسلافهم فى سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه أن يذكرانهم لم يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاستمرأوه وانه لكى يغريهم به ينبغى له أن يتوخى القوة فى العبارة عما يريد فان الناس خليقون أن لا يؤمنوا الا بمن عمر صدره الايمان

وقلما ظهر كاتب أو شاعر الا بالاداء وكثيراً ما يمتاز بعض الكتاب وتخلد أثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن أراء غيرهم كأبي اسحاق الصابىء كاتب الملوك والامراء وان كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب فى تاريخ العقل الانسانى والذين يستطيعون أن يستغنوا الى حد ما عما لا مسمح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والعواطف الذكية تكون الحاجه الى ضرورة فن الاسلوب .

ولعل هذا أكبر الاسباب التى أفضت الى خمول شكرى وفشله فى كل ما عالجه من فنون الادب لانه لا أسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء أن يجيل نظره فى كلامه ليدرك ذلك

اذا كان على شئ من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه أن يرى أنه يستعمل اللغة جزافاً ويكيل « توافيق وتباديل » — كما يقول الرياضيون — من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس اصداء متقطعة لأصوات مألوفة لا رموزاً منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك فى موضعه من هذا النقد

ويخيل الينا أن شكرى على كثرة الشكوى فى شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله

قد طال نظمى للاشعار ا مقتدرا (؟) والقوم فى غفلة عنى وعن شأنى
هـذى المعانى تناجيهم فما لهم لا ينصتون بافهام واذهان ؟

وتعزيه بان الزمان سينصفه ويديل له من خصومه وتظاهره بالاطمئنان الى حكم الايام فى قوله

أرمي بشعرى فى حلق الزمان ولا أبيت منـه على هم وبلبـال

مجاراة للمتنبى وتقليدا له فى قوله

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسـهر الخلق جراها ويختصم

نقول يخيل الينا ان شكرى لو شاء لفطن الى سر هـذا الخمول وعلة ذلك الاهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وان الناس لا ذنب لهـم فقد بحثوا فى شعره على شيء جليـل يروع أو حسن يلذ ويمتع أو مستظرف يلهى ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة فلم يجدوا عنده غناءهم وألفوه يريد ان يجعل نفسه هزؤة السـخفاء وضحكة الفارغى القلب والعقل جميعا . ولقـد كان هينى الشاعر الالمانى الجليل يسخر من نفسه ولـكنه كان بذلك يسخر بالانسانية كلها ممثلة فى شخصه ولا يسع كل قارئ الا ان يحس أنه أصاب موضع الداء . أما شكرى الذى أراد ان يقلد هينى والذى زعم ان العـالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول

وان «ادرج» فى قبرى قتيـل الحب والياس

فمن يصدح بالشعر   ومن يسخر بالناس

هــذا الساخر العظيم والصيدح الفريد والرسول الجليـل لايطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله الى سمو قلق وانما غاية مايرجو فى حياته ان يفوز به على قدر ما استطعنا أن نستوضح غرضه من ايماءاته الخرساء — وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهـدأ ثورته اذا بلغه هو أن « تمر به الحسان فترتضيه » ! ! هــذا هو دينه الذى يدعو النـاس الى عبادته ولا ينفك يشكوهم الى الزمان ويشتمهم ويرميهم بالغباء لانهم لا يستمعون اليـه . اليس هو القائل فى بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه

كفانى من نبيه الذكر أنى   تمر بى الحسان فترتضينى

ولا أدرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز فيه انه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه فى معرض تمر به فيــه وتجسه بعيونها وأكفها كما يفـعل الصبيان باللعب والصور ؟ وما ذنب نصف الناس على الاقل اذا كانت هماتهم ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة ؟

وعلى أنه عجز عن ايضاح هذا الغرض الضئيل اذ من الذى يستطيع أن يفهم شيئاً من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج أن يقول فى نفس القصيدة التى أنزل فيها دينه على الناس وأطلقها من قيود القافية ـ والوزن أحياناً ـ لكيلا يعوقه عن التحدر شئ ـ معاتباً الغرام

اتقصينا ونحن مقربونا   من التبيان والادب الغزير

ولعمرى ما عـدا الواقع فى قوله انه مقرب من التبيان والادب ولـكن التقرب منهما شئ وورود شرعتهما شئ آخر . وهل بل طرف لسانه من معينهما الفياض من يقول

وفى السمي شئ يعوق الطماح   فيخطى الاجل ويصمى الاقلا

ولو سئل هو نفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب القول أو من يقول فى صفة المشنوق

ضاقت الارض عن مآثمه فاعـ ـتاض عنها برقة الملحود

كأنما حسب المرزوء فى عقله — ان كان مافهمناه من البيت هو المقصود — أن المشنوق سيظل معلقاً فى الفضاء الى الابد أو أن الارض تضيق عن شىء من المـآثم أو المحامد أو انها هى التى لفظته وأعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على أن شكرى متكلف لامطبوع وان مايزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد فى الشعر باطل انه هو نفسه قال ينعى على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناحيهم

« واذا صلب أحد الامراء قالوا ان قاتليه أجلوه فلم يرضوا له القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الارض عن أن يضم علاك من بعد الممات

أصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الاكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر فى قلب الحقائق واظهار الذميم مظهر الحسن ... وليس أدل على جهل وظيفة الشعر من قرنهم الشعر الى الكذب وليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر لها وليست حلاوة الشعر فى قلب الحقائق بل فى اقامة الحقائق المقلوبة ووضع كل واحدة منها فى مكانها الخ »

فما أحلى هـذا الكلام وأصـدقه وما أبعد قائله عن العمل به وأدناه الى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول « كله عبثا لاطائل تحته » أوما جدره ان يكف عن دعواه انه من رجال المذهب الجديد فى الشعر وهو لايقلد الا السخفاء من القدماء باعترافه . أترى هذا المفتون يحسب انه يستطيع ان يخدع الناس بهذه النظريات التى ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما كان شعره من النوع الذى ينعاه على سواه ويعيبهم به . أم ظن انه يكفى ان يلوك المرء جملا كالببغاء ليكون فى نظر الناس حديثاً سائراً مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر ان هـذا هو الذى يعتقـده شكرى فبينا تراه يقول فى مقدمات ديوانه « ان الشاعر الكبير (مثله بالبداهه) يخلق الجيل الذى يفهمه

ويهيئه لفهم شعره » ترى له فى بعض هذه الدواوين يصف ليلة ذكرها

يبيت الندى فوق الزهور مرقرقا   كما انبعث الطل الرقيق ليقطرا

أوقوله فى فلسفة « تزاوج النفوس »

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما   ومهرها الحب لايغلو لها المهر

من لى بنفس أرى نفسى بها امتزجت   كما تمازج فى وديانها الغدر

والنفس فى غيشها شتى منافذها   منها القلوب ومنها السمع والبصر

(المقصود هو البيت الاخير) فأى جيل يريد هذا المائق ان يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السين كما ينطقها هو) أما كفى ان فى الدنيا سخيفا مثله حتي يطلب ان يوجد من أمثاله جيل برمته ؟ وأى بلية تكون شراً على العالم من هذه ؟ وأى خطب يكون أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل

كأننا والماء من حولنا   قوم جلوس حولنا ماء !

وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى النقد التفصيلى ان نورد للقراء مثالا لشعر السخر الذى يباهى به قال

ناص صروف الدهر مستقبلا   قذاله لو جزته أقرع

لجز من لمته خصلة   لعلها من خلفه ترقع

فالدهر ان أقبلت ذو لمة   لكنه من خلفها أقرع

مطلعه مثل طلوع المنى   وحسرة ماخاف المطلع

ولا ترم بالذم صفعاً له   فانما يصلع اذ يصفع

قراعه مثل قراع الظبى   وانما يقرع اذ يقرع

فاطل قفاه بمداد لعل اللون من روقته يخدع

وغض عنه نظرا واعيا   فانما يعديك مايطبع

وان جرى فى الدم كره له   فخير مايجدى لك المبضع

حجامة لاشك فى نفعها   وقد يضير المرء ماينفع

ولا تعف صحبته انه بالرغم من صلعته أروع
واحن له الرأس لكى لاترى فانها من خلفه تلمع

ونحن انما نمثل لبكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة أن نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب ـ ونقول على التقريب لأن له أبياتاً مبعثرة فى أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجاً على منوالها لصار صنماً معبوداً لامنبوذاً كما هو الآن . ومابالعجيب أن يكون له بضعة أبيات مفهومة فانك لوجلست ساعة الى مجنون أو أبله لجرى لسانه بجملة أوجمل تلمح فيها أثر العقل . وان كان لم يفكر فى مبلغها من الصواب وحظها من السداد : وللعقل الذاهل المضطرب انتباهات فجائية لعلها من أقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع صاحبنا الى البكم الذى مثلنا له ضعفاً فى الذهن واضطراباً فى جهاز التفكير لم تنفع فى معالجتهما كثرة القراءة والاطلاع على خير ما انتجت العقول . وقد يعلم القارئ أو لا يعلم أن الاطلاع قلما يجدى اذا كان الاستعداد مفقوداً وكان الذهن غير مستو أو صالح « لهضم » مايتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد بالموجود — كالمعدة الضعيفة لاينفعها أن تزحمها بألوان الطعام وكثيراً مايكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول من المعدة الى الدماغ . وماعدونا بقولنا هذا ماوصف به نفسه حيث يقول « ويمتاز الشاعر العبقرى (يعنى نفسه أيضاً) بذلك الشره العقلى الذى يجعله راغباً فى أن يفكر كل فكر » ولكن مابه ليس من هذا القبيل وشرهه لايجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو مايعانيه شكرى ولعله من أسباب ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريت وقصص السحرة والمردة والجان لما وقع فى نفسه من أن هذا حقيق أن يقوى خياله ويجعل له أجنحة يحلق بها فى سماء الشعر وفاته هو وأمثاله ان الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحقيقة وان كل كلام ليس مصدره صحة الادراك وصدق النظر فى استشفاف العلاقات لايكون الاهراء لامحل له فى الادب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان العواطف وضعف الروح تعيش فى عالم الشعر ؟

وليس في الوضوح وقوة الاداء وحسن البيـان ما ينفى العمق لأن العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقاً كما يشاء ولـكن مع الوضوح والجلاء اذ أيهما أحوج الى النور يراق عليه ويكشف عنه ؟ ما تلمسه اليد وهى تمتد وتعثر به الرجل وهى تخطو أم ما يغوص عليـه المرء فى أغوار الفكر ؟ فـكل غموض دليـل اما على العجز عن الاداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة فى ذهن صاحبها

على انه من أخش الخطأ وأضره بالاستعداد وأشده افساداً للفطرة أن يتكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة النسور اذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمال فان العقل الصغير اذا التزم حدوده وقام بمـا يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل الى غايته من طريقه ولا يحس الحاجـة الى قوة العقل الـكبير .

وقد ركب شكرى هذا الجهل فتكلف مالا يحسن وأراد أن يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الاول وظن ان الاجتهاد يغني غناء الاستعداد فلا هو بلغ أية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقى على خلقه الوادع وقناعته بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال البسه اياها

ولما كان السقم في الـكلام مرده الى السقم فى الذهن فـنبدأ نقدنا بالدليل الضمنى المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب ببيان الفساد الذى اكتظت به داووينه ونختم الـكلام بتقصى سرقاته واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعا.

*
* *

لا نقول ان شكرى مجنون فنحن أرفق به من أن نصدمه بذلك وأعرف بحاله وبأمراض العـقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحـاء والتذكير والالحاح ولـكننا نقول ان ذهنه متجه أبدا الى هذا الخاطر — خاطر الجنون — وان فـكرته مالئة لجوحياته والخوف منه منغص عليه كل لذاته وعلالاته وانه حتى في طعامه يتوخى ما يظن أو يقال له انه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على

المقاومة كالسمك والبيض والمخ وأشباه هذه الالوان — وان ذكر هذا اللفظ على مسمع منه يدخل فى روعه انه هو المعني به فيمتقع — ولا يخفى ان اتجاه الذهن له دلالة خاصة وهو قرينة قلما تخطىء اذ لماذا ينصرف المرء الى خاطر بعينه لا يعدوه في روحاته وغدواته وفى طعامه وشرابه ويقظته ومنامه وفى أقواله وكتاباته من شعر ونثر — أو منظوم ومنثور على الاصح — ولكن اتجاه الذهن لا يصح ان يؤخذ به وحده فى البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . وأكثر أهل الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشذوذ . والجنون والعبقرية بسبيل وهما فى الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما متماثلتان فالعبقري ذهنه مكظوظ بالآراء حافل بالذكريات يتمخض أبدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والاصوات والالوان لا تفطن اليها عقول الاوساط . والجنون فى ذلك نده وقرينه وكلاهما ترجع مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط فى بعض نواحى المخ أو فتورها أو قابليتها للتنبه والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا والجنون عبقرية وقد فطن الاقدمون الى هذه العلاقة ولحوها وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير ان جنون العبقرية منتج يخرج — كما يقول افلاطون — الشعراء والمخترعين والانبياء اما الجنون المألوف فهذا عقيم نعيذ صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغي ان يتوهم أحدان العبقرية هى الجنون فليس أخش من هذا الخطأ ولا اقتل من ذلك الظن لان العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادي وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع الاضطراب فى التوازن العقلى والعصبى

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل عليها ويرهقها به كأن يكتب جزءاً من ديوانه فى شهر واحد حتى كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه ان يتمه فى وقت محدود . وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه بعدطبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج للناس الجزء تلو الجزء

كأنما يخشى ان يخب به المرض ويوجف بعقلة الداء فلا يستطيع ان « يصدح بالشعر ويسخر بالناس » ! ! وماذا أجناه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكأنما هو حجر وقع فى بئر فلا هو « صدح » ولو فى حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء عقله

والى القراء أمثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت »

حنينى الى وجه الحبيب جنون　　جنون يهيج القلب وهو شجون

وقال من قصيدة الدفين الحى

فهاج هياج الشر فى الاسر طرفة　　وأدركه حتى الممات جنون

وقال من قصيدة غاية الحب

وان كنت عندى جئت بالعقل والحجى　　وان لم تجىء فالقلب مجنون ثائر
ولكن وجدى منك جن جنونه　　فها أنا من حبى بحسنك هاتر

وقال فى « طبع الانسان »

ان بالمرء جنونا جاعلا　　نوبة للشر فيه تحتدم
لا ينال البرء من نوبته　　أو يذيع الشر منه والالم

وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت معدى عن لفظ الجنون

وفى كل وجه من جنون ومن أذى　　ملامح لا تخفى تناديك بالجهر

اذ من الذى يستطيع ان يدعى أن فى كل وجه ملامح من الجنون ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرئ غيره سكران ؟ وقال من قصيدة « سلوان الجنون »

عسى ان تجن النفس فيكم جنونها　　فلا ذكرة تصبى ولا فكر يخطر
فان جنون النفس سعد وراحة　　وان عناء الحب ذاك التذكر
فانساك حتى لست أدرى أعائش　　على الارض تسعى أم دفين معفر
فان يبلغ الحب الجنون فلا تلم　　اما كل مجنون على الهجر يعذر

وقد كان له مندوحة عن تمني الجنون وكان فى وسعه ان يطلب الموت أو

السلوان ولكنه لشقوته يحسب ان المجانين سعداء لا يكرب أحدا منهم خاطر ملح أو وهم جاثم ولو انه سأل طبيبه لعرف منه ان بعض المجانين يعذبون أنفسهم بما يتخيلون وأنهم كثيرا ما يخلقون لانفسهم جحيما من الاوهام يصلونها ، على انا لا ندري من أين جاءه ولماذا ظن ان حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون اذا بلغ الحب ذاك ؟ ولكنه معذور على هذه السفسطة على كل حال والناس كذلك معذورون اذا لم يقرؤا نظمه . وقال من قصيدة صنم الملاحة

بلغ الغرام الى الجنون   فلا عتاب ولا ندم

وقال من قصيدة « الحسود »

وأدركه مس الجنون وأظلمت   عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلغوك »

بالله ما تفعل لو بلغوك   انى عرتنى جنة من هواك
وكيف لا يذهب لبى الهوى   اذا مضت لى أشهر لا أراك

ومن قصيدة « انا مجنون بحبك »

انا مجنون بحبك   فازل غلة صبك

ومن قصيدة القديم والجديد

ومن العشق جنون خابل   يزدرى المرء له وقع التهم
انما الحب جنون وجوى   ورجاء واجترام وندم

وقد ترقى فى هذا المعنى من القول بانه هو مجنون الى نسبة الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدهر أيضا قال من قصيدة « جنون الحياة »

لا ترع فالدهر مجنون   كل حى فيه مغبون
جن من حول ومقدرة   وكذا ذو الحول مجنون
فتضاحك ثم قل أبدا   ان هذا الدهر مجنون
دهرنا دار المجانين   كل حى فيه مسجون

ومن قصيدة « بعد الحس »

وكنت أعد الحسن فيك فطانة　　　وأن جنوني فى هواك صواب

وقال من قصيدة « وحى الشعر »

بجنون النعيم والبؤس فيهم　　　وهى تبدو لغيرهم كذكاء

وفسر البيت بقوله « أي عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والالم » فانا أشهد الله والناس انى لا أحس هذا الجنون . ولكنى أحسبه سينكر على الشاعرية لهذا على الاقل . وقال من قصيدة مشترى الاحلام

لو يستحيل المستحيل على الورى　　　وأنال من أحلامه ما أطلب

لجننت جنة قادر متحكم　　　يرضى على هذا الانام ويغضب

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من قصيدة صوت النذير

أم ضحكة الرجل المجنون من حزن　　　لشد ما نال منك البؤس يارجل

حتام تنكر حقا غير مشتبه　　　لا يكره الحق الا من به دخل

وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه أياه راجعا الى أى سبب غير الجنون

وقال من قصيدة بين الحب والبغض

وأن بقلبى من جفائك جنة　　　فان رام يوما قتلكم ما تأثما

فأسقى جنونى من دمائك جرعة　　　وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

فيظهر أن حبيبه عرف ذلك منه وأدرك أن جنونه قد يدفعه الى الاجرام فتحرى البعد عنه فما أشقاه ! جنونه يغرى حبيبه بالهجر والهجر يزيد فى جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة والى أى حال ينتهى به هذا الدوران ؟ ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما فى الاجزاء الاخرى . ولم ننقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان هناك أبياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله

أمشى (أحدث نفسى) عن محاسنكم　　　حتى يخال حديثى لغو نشوان

نشوان ليس له عقـل فيسكته   الحب خمرى وليس الخمر من شأنى

فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون وقوله وهو أدهى

واهتف طول الليل باسمك جاهدا   وهاجس هذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا فى الهتاف ويعترف بان هذا داء ملازمه لاعرض زائل وقوله

(غاب رشد الناس) عن أنفسهم   ضاع منهم تحت اشلاء الرمم الخ الخ

وليس الامر بمقصور على جولان هـذا الخاطر فى نفسه وملازمته اياه أبدا وعلى الصياح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب فى الطريق كالسكارى والاعتقاد بان كل الناس مجانين وأن الحياة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لـكل شئ جنونا مجنا وأن الزمن دار المجـانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهـم مرضى كما يقول

فى كل دار من جواه مريض   وكل قلب فيه جرح رغيب

كأنمـا يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا أن الامر كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء النوع ولـكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الامر بمقصور على ذلك فان شكرى على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو — تساهلا فى التعبير — مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا أنه يسمع أصواتا أو يرى أشباحاً تختلف وضوحاً واستبهاما حسب درجة الحالة فاذا أصاب العين رأت مالا وجود له أو الاذن سمعت مالم يصدر فعلا من الاصوات وقد لا يصحبه أى اضطراب محسوس فى القوى المفكرة وان كان لاشك مع ذلك فى انه اضطراب محلى فى المخ اذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيراً ما يصحب بعض حالات الجنون «هذيان الاذن» أي اعتقاد المصاب أنه يسمع أصواتا أو أن أرواحا تخاطبـه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب فى برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسير فى الطرقات وأشباح الآدميين والحيوان أيضاً وكان يسمع أرواحا تلازمه بالليل

تتخاطب وقد تكلمه ويسأله بعضها عن بعض وقد عولج من ذلك بوضع «الدود» على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد الى بعض نواحى المخ

وقد قال شكرى — أعاذه الله من شر ذلك — فى الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا

أو كنور البدر فضيا له   وتر فى القلب فضى النغم

« ما رأيت القمر الا أحسست كان نواقيس تطن فى أذنى . وأن ألذ الانغام رنة الفضة المجوفة » اهـ

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهى قاطعة فى أنه فى كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى أذنه صوت نواقيس فضية ولنا أن نلاحظ أمورا

أولها — أن البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لان معناه مفهوم بدونه

وثانيها — أن ما (يطن) فى أذنه «كلما» رأى ضوء القمر ليس له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض — بتقريره أن ألذ الانغام رنة الفضة المجوفة خصوصا وان رنتها «ليست» ألذ «الانغام» وان كانت «أخلص» الاصوات وأصفاها والفرق كبير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغمة . نعم أن الصفاء من عوامل الحلاوة فى النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار — مع التسامح فى عد الرنة نغمة — لايمكن أن يعد «ألذ» الانغام .

وثالثها — انه كلما رأى «ضوء القمر» طن فى أذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخاصة وأهل الاطلاع والملاحظة ان «ضوء القمر» مقرون فى أذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهذيان كما يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء فى الذهاب الى انها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا أن نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب فى طائفة من الاعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول فى هذا الباب

ولكنا قد أطلنا وان كان التحليل ممتعا مغريا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزىء بملاحظة أخرى وهى أن لشكرى كتابين غير دواوينه أحدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا أنه وصفه بأنه « احلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهى كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتبا روسيا فى رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكرى ان حلاقا ذبح زبونا له لان رأس الزبون تشبه رأس الخروف فأغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهى فى الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق

وقد سبق لنا ان نبهنا شكرى الى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبي وأشرنا عليه بالانصراف عن كل تأليف أو نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولان جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانياً ولم تكن أمامنا فى ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الآن وقد رأى كثرتها وتوافرها — وهى كثرة مروعة — يرجع الى رأينا ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليق أن يحمده الناس منه فلا يحاول ان يغالب مشيئة الطبيعة التى لا تخلق الا بكم الا وهى قادرة على الزامه البكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق

....

يتلى　　　　　　　　　　　　ابرهيم عبد القادر المازنى